

باب فضل من علم وعلم

باب فضل من علم وعلم. قال: حدثنا حماد بن العلاء قال: حدثنا محمد بن أسماء عن بريد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { مثل ما يعنني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكبير أصاب أرضًا؛ فكان منها نفقة قبل الماء فأبنت الكلأ والعشب الكبير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى قيغان لا تمسك ماء ولا تبنت كلأً؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما يعنني به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به } . قال أبو عبد الله قال إسحاق وكان منها طائفة قبل الماء قاع يعلوه الماء والصفصاف المستوی من الأرض. مثل ضربه النبي -صلى الله عليه وسلم- في الفقه والفهم وغيرهم، ذكر العلماء أن الأرض إذا نزل عليها المطر تنقسم إلى أربعة أقسام: قسم: يكون فيها الماء والمستنقعات وتحفظ الماء وتنتبه الأعشاب، فالناس يأتون فيها فيجدون الأعشاب، ويرعون ويختشون، ويجدون الماء على ظاهرها فيرتوون ويزرعون، والماء أيضا في جوفها فيرتوون؛ وهذه أفضل البقاع.

وقسم ثان: تبنت الكلأ والأعشاب، ولكن لا تمسك الماء ينزل عنها الماء إلى غيرها يردها الناس يأتون فيجدون فيها النباتات والأعشاب فيرعنون وأغناهم ويختشون منها فيها منفعة. وقسم ثالث: تمسك الماء على ظاهرها أو في جوفها يردها الناس ويرتوون ولكنها لا تبنت إما أنها حجرية صخرية غير قابلة للنبات أو نحو ذلك ولكن تمسك الماء فينتفعون بالماء يرتوون ويسقون دوابهم ويشربون فيها أيضاً منفعة. القسم الرابع: الأرض السخنة تمتض الماء في ظاهرها، ولا تبنت نباتاً ولا تمسكه في ظاهرها ولا في جوفها أرض قيغان لا تمسك ماء ولا تبنت كلأً. أربعة أقسام فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ضرب المثل للناس بالنسبة إلى أخذ الكتاب والسنة، فهم أربعة أقسام أفضل الأقسام الذين يحفظون النصوص ويستبطون منها الأحكام جمعوا بين الحفظ والفهم أذكياء بحيث إن كل ما سمعوه فإنهم يحفظونه، وإذا حفظوه استفادوا منه، ومع ذلك يستبطون منه كثيراً من الأحكام، قد يستبطون من الآية عشر فوائد أو غيرها وكذا من الحديث يستبطون منه مائة فائدة أو نحوها فيجمعون بين النصوص وبين الفهم وبين الاستدلال بها، يستدلون بها بهذه النصوص فيقولون في هذا الحديث دالة على كذا وعلى كذا وعلى كذا فهؤلاء يمنزلة الأرض التي تبنت الكلأ وتمسك الماء، ففيها نفع مرتين فيهم نفع يحفظون للناس النصوص بما رزقهم الله، وفيهم نفع بالقدرة على الاستبطاط وعلى الفهم ونحو ذلك هؤلاء خير الأقسام. القسم الثاني: الذين رزقهم الله ذكاء وقوة إدراك وقدرة استبطاط وحسن تعليل ولكن ليس لهم حظ من حفظ النصوص إلا القليل -أعني الحفظ عندهم قليل- ولكن رزقهم الله -تعالى- فهما وذكاء في إدراك المعاني، وفي استبطاط الأحكام وفي ذكر التعليل وما أشبهها، فهؤلاء نفع الله -تعالى- بهم. والقسم الثالث: يحفظون أووية للحفظ أعطاهم الله -تعالى- قوة الذاكرة فهم حفاظ، ولكن لم يشتغلوا بالاستبطاط، وإنما يشتغلون بالحفظ يحفظون الأحاديث الكثيرة، وإذا سئلوا عن مسألة فقد لا يذكرون دليلاً وقد لا يستبطون من هذه الأدلة حكمها، ولكن سخرهم الله -تعالى- لحفظ النصوص. والقسم الرابع: الذين حرموا هذا وهذا لا حفظ ولا فهم فقول -متلا- الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- والإمام مالك من رزقهم الله الحفظ والفهم بحيث إن أحدهم يحفظ ما سمعه ومع ذلك يستبطنه الأحكام ويستبطنه منه الفوائد، فهم ممن جمع الله له بين الأمرين، الإمام أحمد أحافظ؛ لأنه ذكر أنه كان يحفظ ويغتني يقول فيه الصدرصي حوى ألف ألف من أحاديث أنسنت وأيتها حفظاً بقلب محصل هذا في الحفظ ألف ألف مليون حديث مسندة وأثبتتها حفظاً بقلب محصل، ثم يقول في الاستبطاط: أجاب على ستين ألف قضية بأخبرنا لا عن صحائف نقل يعني سئل ستين ألف مسألة، ماذَا يكون قدرها؟ إذا سئل بعض المتأخرین عن ألف مسألة وأجاب عنها استكثرا، فكيف بستين ألف قضية أجاب عنها بأخبرنا، لم يرجع إلى الصحف، ولم يرجع إلى كتاب، بل عندما يسأل يقول: الجواب ما حدثنا فلان عن فلان سواء كان حدثنا مرفوعاً أو حدثنا موقوفاً أو أثراً من الآثار، فيجيب على هذا كله. فهذا دليل على أن الله -تعالى- جمع له بين الحفظ والفهم. الإمام مالك -رحمه الله- إذا قرأت كتابه الذي هو الموطأ تستدل به على كثرة استبطاطه كيف أنه أجاب على تلك المسائل الكثيرة التي في موطنها، وكذلك أيضاً إذا قرأت كتاب المدونة خمسة أجزاء كبار تجد أن هذه كلها مسائل سئل عنها أغلبها إن كان بعضها من تلاميذه مما يدل على أن الله -تعالى- وبه حفظاً ووجهه فهما. الإمام الشافعي -رحمه الله- والإمام أبو حنيفة من رزقهم الله الفهم، أما الأحاديث فإنها قليلة للإمام أبي حنيفة يوجد له مسند يقالون: إنه مسند أبي حنيفة ولكن أكثره من الرواية عنه، ولكن رزقه الله الفهم بحيث إنه يجرب على المسألة فوراً، ويدرك فيها الأدلة التي يستحضرها يعني الاستبطاطات والتعليقات وما أشبه ذلك ولا يتلعم في الجواب. ذكر مرة لهم حكم مسألة هل هي نفي أو إثبات؟ فقال: يمكن أن تبنتها ويستدل على إثباتها يكذا وكذا وكذا من التعليقات، حتى قال السامعون: هذا هو القول الصحيح. ثم قال: وإذا قلنا بالمعنى فإننا نتعلّم يكذا وكذا حتى قالوا: هذا هو القول الصحيح، ثم قال: ويمكن أن يقال فيها قول ثالث وهو كذا وكذا وعلله حتى قالوا: يمكن أن هذا هو القول الصحيح! مما يدل على أنه قد أعطى قوة في الإدراك والفهم. الشافعي -رحمه الله- روى موطأ الإمام مالك وروى أحاديث غيره ضمنها كتابه الأم، ولكن أكثر كتابه تعليقات واستبطاطات وفهم وغيره، ولم يكن يحفظ الأحاديث كثيراً ولكن كان يقول للإمام أحمد إذا صاح عندك الحديث فأخبرنا حتى نعمل به مع أنه مات والإمام أحمد لا يزال شاباً أو كهلاً عاش الإمام أحمد بعده نحو سبعاً وثلاثين سنة. فالحاصل أن هؤلاء منهم من جمع الله له بين الحفظ والفهم، ومنهم من خصه بالفهم، أما الذين اختصوا بالحفظ فكثير؛ مثلاً يحيى بن معين رزقه الله الحفظ، ولم يكن ممن يشتغل بالاستبطاط، وكذلك علي بن المديني ويعين بن سعيد القطان ونحوهم كانوا ممن اشتغلوا بالحفظ، ولم يكونوا يشتغلون بالاستدلال ولا بالاستبطاط إنما جعلهم الله تعالى أووية لحفظ السنة، ولكن مع ذلك فإنهم قد يجيرون بما يحفظونه من السنة. أما غيرهم الذين لم يشتغلوا بالأحاديث ولا بالسنة فهؤلاء هم المعرضون فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر هذا المثال: { مثل ما يعنني الله -تعالى- به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاف أرضًا فكان منها طائفة قبلت الماء فأبنت الكلأ والعشب الكبير } هؤلاء هم الذين جمعوا بين الحفظ والاستبطاط، { وكان منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وارتوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيغان لا تمسك ماء ولا تبنت كلأً؛ فذلك مثل من فقه في دين الله فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به } . فالذين أعرضوا عنه إما اشتغلوا بدنياهم، وإنما اشتغلوا بعلوم أخرى كالذين اشتغلوا بفلسفة أو الذين اشتغلوا بعلم الكلام، أو الذين اشتغلوا بالعلوم الجديدة المستبطة أو الماخوذة عن اليونان ونحوهم، وترجموا كثيراً من كتب اليونان ونحوهم، فهؤلاء ينطبق عليهم أنهم أعرضوا عن الكتاب، وأعرضوا عن السنة لم يرفعوا بها رأساً ولم يقبلوا هدى الله الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-. هذه الأقسام الأربع تجدونها في كل زمان، تجدون من يشتغلون بحفظ رزقهم الله تعالى فيحفظون مئات الأحاديث أو ألف ولكن يشتغلون بالحفظ عن الاستبطاط، وأخرون رزقهم الله الاستبطاط، وأخرون جمعوا بين ذلك، وأكثر الناس الذين لم يشتغلوا بذلك. ذكر عن ابن مسعود أنه قال: الناس أربعة عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، ومستمع ومحب، وسائر الناس هم رعاع، يغلون الآثار ويضيقون الديار. وفي بعض الروايات أنه قال: كن عالماً أو متعلمًا أو مجالساً أو محبًا ولا تكون الخامسة فتهلك، فانقسام الناس هذه الأقسام يدل عليه واقعهم.